أوراق من دفتر تاء التأنيث(*)

نازك الأعرجي

ينقف الصبيان عذوقَ التمر بالحجارة فيُسقطون تمرات، يدّعون أنّهم استهدفوها بعينها دون جيش التمر المكتظّ في العذق الواحد. ونصدّقهم لأنّنا لا نستطيع أن نفعل ما يفعلون. ويتساقط التمر... منذ أن يكون فجّاً طريّ النواة مُرّ المذاق، حتّى يتكوّر ويطرى، فنروح نلمُّ الحبّات ونعضعضها مختبرين طراوتها وحلاوتها: فإذا كانت ذات طعم قابض رميناها، وإذا كانت هشّة ذات حلاوة غامضة أكلناها مُغبّشَةً بضباب من رطوبة وغبار. وحين يصفرّ التمرُ يعربش الأولاد محاولين الوصول إلى العذوق وانتقاء الثمرات الناضجة. ومن ينجح في الوصول يظلّ هناك، يأكل حتى يمتلئ بالحلاوة ويعبّئ «عبّهُ» ثم ينزل وكفّاه تتسلخان وقدماه تمتلئان بشظايا جذع النخلة. وما إن يبدأ التمرُ بالنضج حتى يزداد نضجاً بسرعة أكبر فيعجز «لواقيط التمر» عن ملاحقة حبّاته الناضجة التي تروح تذوب وتنقط عسلاً أشقر صافياً ولا تعود صالحة للأكل، فيكون أوانُ قصِّ التمر قد حان.

الفتيات لا يتسلّقن النخل. ننتهز فرصة غياب الأولاد ونحاول «نَقْفَ» النخلة بالحصى فلا تصل رمياتنا إلى أعلى من قاماتنا. تقول واحدةٌ منّا: «سأتسلّق النخلة» فتحتضن كلّ واحدة منّا جذعَ نخلة ونحاول تسلّقها. تتمزّق أقدامنا وتمتلئ بالشظايا ولا نستطيع أن نحتضن أكثر من ربع محيط الجذع، تتجلّط راحاتُ أيدينا فنتراجع ونحن نحترق بلهيب الجروح في أيدينا وأقدامنا.. لكن تلك الفتاة تُصرّ: تضع قدميها على بروزات جذع النخلة وتحتضنه بشدّة، فترفع قَدَماً، ثم أخرى.. وحين تجد أنّها قد ارتفعت، ترتعب وهي تنظر إلى الأسفل فتبكي تريد النزول ولا تستطيع أن تُفلت جذعَ النخلة فتزداد به التصاقاً. رحنا نسحبها من ثوبها وهي تتشبّث بالنخلة وتبكي، وحين نجحنا في سحبها أخيراً وقعتْ مستلقيةً على ظهرها وقد تجرّح فخذاها وتلوّثا بالدماء. خرجت أمُّها على صوت صراخها، وحين وجدتها في ذلك الوضع لطمتْ وجهها وخمشتْ خدّيْها وركضتْ باتجاهنا، فهربنا. حَمَلَت ابنتَها وهي تصرخ: «مَنْ فعل بها هذا؟»، واختلط عليَّ الأمرُ على صغر سنّي. ففي اللهجة العامية نقول «مَنْ سوّى» ولا نقول «مَنْ فعل». ولا يلفظ النّاسُ كلمةَ «فَعل»، كما هي في الفصحى إلاّ إذا كانوا يعنون «ضاجَعَ»، فيقولون «فلان فعلَ بفلانة»، هكذا دون زيادة، فيُفهم أنّه قد ضاجعها. لذا دُهشتُ وأنا أسمع صراخَ الأمّ الملتاع: لأنّني ظننتُ أنّ الأولاد لا «يفعلون» بالبنات، ولأنّهم – فوق ذلك – غائبون، ولأنّ «الفعل» نفسه لم يكن واضح الملامح في ذهني، ولم يكن ملوّثاً بالدماء ومعزّزاً بالجروح والتسلّخات على وجه التخصيص.

وما لبثت الجاراتُ أن تجمّعْنَ حول البنت وهنّ يعتقدن أن أحداً قد فضّ بكارتها. وبدأتْ أمهاتنا – كلّ واحدة تتكفّل بابنتها ضرباً وقرصاً كي نعترف بمن «فعل ذلك» بالبنت، ونحن نهتف متوجّعات: «النخلة.. النخلة» فلا يسمعْنَنَا. تطوّعت إحدى الجارات: «أنا أفحصها» فَنَزَعْنَ سروالَ البنت، وقرّرت الجارة أنّ الجروح سطحية، فقالت أمّها: «لا بدّ أن نتأكّد»، فنصحت إحدى العجائز بصوتها الخشن أن يجرّبن «اختبارَ البيضة» والأم تلطم وتنوح وتندب بالمقطع التالي من أغنية شعبية: «ياليتها ماتت.. حُزْن مَنْ يموت اسبوع، بَسْ حُزْن الحيّ يدومْ». «وما اختبار البيضة؟» قالت الأمّ. تلفّتت النساء ففوجئن بتجمّعنا حولهن فطردْنَنَا كما يُطرد الذبابُ لكي لا نفهم شيئاً عن «اختبار البيضة» وقد كنا في الواقع نطمح في أن نشهده عياناً!. «راحت البنت، خربت البنت، يا ويلي، يا ويلي» كان صوت الأمّ يلعلع خلفنا ونحن ننسحب مطرودات.

●●● في المكتب الضيّق المختنق بالدخان، جلسنا في انتظار آخر أخبار معاركَ كانت تدور على أطراف المخيّمات. ولا أدري كيف انزلق الحديثُ إلى

(*) فيما يلي مقاطع طويلة من فصل عنوانه «فصل التمر.. برج الماء». **والأوراق** المذكورة نوع فريد من الرواية والسيرة الذاتية والتأمّلات الوجدانيّة والأساطير الشعبيّة والاستطرادات والذكريات، وتصدر في كتاب قريباً (**الآداب**).

مستوى المزاح والأحاديث الجانبية، إذْ قال أحدُ الشباب الصغار شيئاً طريفاً علّق عليه المسؤولُ بتحبّب: «يا كَوّاد [قوّاد]..». فكأنّ صفحة قد انقلبت.. قفز الشابُ وقد احتقن وجهه. سحب مسدّسَه ووضع الرصاصةَ في بيت النار وعوى بوحشية: «أنا كَوّاد؟!» فبُهتنا جميعاً - وبعضُنا لم يكن قد سمع الكلمةَ، ولا حتى الحوار كلّه.. وراح الشاب وإصبعه على الزناد يرسم نصف دائرة بيديه ويقول: «سأقتلكم جميعاً!» فأيقنتُ أنّنا مقتولون لا محالة. ولأنّ المسؤول كان كبيراً في السنّ نسبياً فقد استوعب حجمَ الخطر فظلّ ساكتاً. وفي الواقع كنّا جميعاً ساكتين نأمل أن يهدّئ سكوتُنا ثائرةَ الشاب الذي يبدو وكأنّ الكلمة قد أصابتْ فيه جرحاً طرياً، لا بدّ أنّ في بيته قصّة تتعلّق - على الأرجح - بأخته، وقد هُيِّئ له أنّ الجميع يعرفون عنها وأنّ قائل الكلمة أراد أن يُعيّره ويفضحَ سرّه... مرّت دقائق.. ربّما ثوانٍ، من يدري. والشاب يرتعد وإصبعه على الزناد بحيث يمكن لأيّ قدرٍ من الانفعال أن يدفعه إلى الضغط عليه. وقد كنتُ واثقةً من أنّه لو بدأ بقتل واحد فإنّه سوف يقتل الجميع. ويبدو أنّ الهدوء قد خفّف من حدّة التوتّر.. وحين بدا أنّ ذروة الانفعال قد مرّتْ قال المسؤولُ بهدوء: «هذه كلمة تقال مُزاحاً، كما لو كنت أقول لك يا عفريت..» فصاح الشاب وهو ينطّ في موضعه: «أنا لا أحد يقول لي كَوّاد! فهمتهم؟!». «أكيد.. أكيد، أنا آسف» أجاب المسؤول. وبدأ أكثر من واحدٍ من الذين استطاعوا استعادة أصواتهم بتهدئة الشاب، لكن أحداً لم يجرؤ على أخذ مسدّسه، أو الطلب منه رفع إصبعه عن الزناد، حتى قام المسؤول، وقبّل رأسه، فراح الشّاب يبكي كطفل.

●●● هتفتْ بيَ الأمُ الملتاعةُ وهي تسألني عن شخصٍ ما ذكرَتِ اسمَه فلم أعرفْه. «هو عندكم، لا أدري في أيّ مجال.. أظنّه عسكرياً، اسألي لي عنه، دخيلك ودخيل معروفك». «ما قصّته؟» اسألها. تقول إنّها لا تستطيع أن تخبرني: «فقط جِديهِ لي، من تحت الأرض، من قلب السما» فخمّنتُ أنّه ربّما استدان منها مبلغاً من المال وهرب. فألحَحْتُ عليها: «ما به.. ماذا فعل؟» فهبطتْ على الكرسيّ وقد جفّت دموعها وجمدت نظراتها، وهمست: «فتح البنت!». «ماذا؟!» هتفتُ وقد اختلط عليّ الأمر؛ فقد ظننتها تعني أنّه فتح بطنها، أو فتح رأسها فقتلها.. «كيف يعني.. مَنْ.. ماذا؟» جعلتُ أُلهوج وقد تجمّدَتْ قدرتي على الإدراك وتوقّفتْ عند نقطة لم أكن أستطيع فيها أن أفهم كيف يمكن أن «يُفتح» إنسان. فصرختْ بي: «فَتَحَها.. فتحها.. فتح البنت الصغيرة يا اختي.. ١٥ سنة.. دَبّريني!». سألتُ عنه فأخبروني بسرّه.. سرّ أمني لا ينبغي إشاعته. «انتهى، ذهب إلى غير رجعة، تبخّر!» فأخبرتُ الأمّ المفجوعة بأنّه قد هرب ولا أحد يعرف عنه شيئاً. ودُهِشْتُ لسكوتها.. بدتْ وكأنّها قد انحدرْت إلى أعماق بئرٍ سحيقة. لم تسأل. لم تناقش. وبعد أقلّ من أسبوع سمعت أنها قد زوّجتِ البنت لرجلٍ مُسنٍّ، ولعلها تربّي الآن أيتاماً بلغوا مرحلة الشباب - أكبرُهُم ابنُ الحبّ القاتل - وهي تظنّ أنّ حبيبها قد نال وطره منها وهرب!

●●● ينفخ صدرَه المكْسُوُّ بالكاكي [الخاكي] ويقول: «خَرَى على هيك مجتمع يسمح لي أن أفعل السبعة وذِمّتها، ويبيح لي أن أقتل أختي إذا ضحكت لشابٍ من وراء النافذة!!»... يخيّل إليّ أنّني سمعتُ هذا «النصّ» عشرات المرّات حتى رحتُ أقول لنفسي: «إمّا أنّ المسألة مسألة جينات وراثية، وإمّا أنّ الرجال يتخرّجون من مدرسة سريّة واحدة يُلقّنُون فيها هذه العبارة وما يتفرّع عنها أو يتطوّر من تجلّياتها». ثم أدركتُ أنّني كنت دائماً أتعامل مع الكلام على أنّه «كلام» يَعْبر من إحدى أذنيّ ليخرج من الأخرى، وقليلٌ قليلٌ من الكلام استقرّ في وجداني.. آلامُ التجارب وحدها تلمس قلبي وتؤثّر في قناعاتي ومفاهيمي... «مفتوحة! يا للعار» يهتف الرجل.. «وهل المرأة علبةُ لحمةٍ فتفسد إذا هي فُتحت؟!». يضحك الآخرون ويتبارَوْن في إبداء الآراء التقدّميّة، ثم يفتّشون عن «قطط مغمَضة» للزواج، يحلمون بأنّهم فرسانُها الوحيدون، يعلّقونها في أذرعهم في المناسبات ويحبسونها في البيوت ليضمنوا أنّهم «المستعملون» الوحيدون لها.

«لماذا لا تدعون نساءكم يعملن معنا؟».. يتضاحك الرجال بالكاكي مستمتعين بوضوح أدوارهم الخطيرة في شَتْم نسائهم، يقولون لنا: «اذهبْن إليهنّ، ما شأننا؟» وتتلعثم النساء: «البيت، الأولاد، مشاغل، طبخ، جلي» فنقول: «وَمَنْ نحن؟ ألسنا أيضاً نساء، أم أنّكُنّ تعتقِدْنَنَا جنساً ثالثاً؟» فتجيب النساء ويجيب الرجال: «أنتنّ متفرّغات للعمل السياسي». فنسأل: «ولماذا لا تتفرّغن أنتنّ أيضاً؟». يتخاطف النّساء والرجال النظرات اللاسعة وتظلّ الدائرة تدور وتدور، وندور نحن وندور حتى ندوخ..

«لا تلبسي هذا اللون، إنه فاقع»، «ولا هذه البلوزة، إنها ناعمة..»، «لا تضحكي بصوت عالٍ، ضحكتك مثيرة»، «بنطلونك ضيّق، فلان كان يختلس النظر إلى مؤخّرتك»، «لماذا تتعطّرين؟»، «مَنْ كان معك في الاجتماع، وفلان؟.. هل ضحكتِ معه؟ جلستِ إلى جانبه؟»، «ألم أطلب منك، بل ألم أتوسّلْ إليك أن لا تحدّثي علاناً؟ ماذا تعنين.. صديقك؟! لا صداقة بين الرجل والمرأة، إنّه يشتهيك»، «أنا أكره التوضيح، وأنت تُضطرينني إلى ذلك.. قلتُ لكِ للمرّة الألف: حدثيني عن كلّ ما تفعلينه في يومك.. مَنْ رأيتِ، مَنْ حدّثك، ماذا لبستِ، كيف تصرّفتِ؟..»، «اللّه أكبر.. لا تدّعي البراءة.. نعم، أريد منك تقريراً يومياً عن جميع تحرّكاتك»..

وأدور.. أدور، أدور والحبل يلفّ ويلفّ حول رقبتي، حول روحي. يصبح الحبُ دُمْلاً متعفّناً يأكل قلبي ويلوّث إحساسي بالحياة.. كنتُ سأفعل أيّ شيء لأقتلعه مِنْ قلبي.. وصرتُ أحلم بمعجزة الحرية.. أتخيّلني وأنا حرّة.. خفيفةً كالريشة، أمتلك زماني وقواي وعواطفي وخيالاتي ومزاجي ونزواتي. غير أن يوم الحرية بدا بعيداً، والحبّ مثل جثّة حبيب: لا نحن قادرون على دفنها، أملاً في معجزة، ولا البقاء معها، إدراكاً باستحالة تلك المعجزة.

تقول صديقتي: «لا تدعيهم يدنّسُونك، فهم لا يطيقون وجودَ امرأة لا يستطيعون نيلها».. يقول لي: «اقبليني. سأكون ما تشائين، لنْ أقربكِ حتى تريدي أنتِ، سأكون صديقك وحبيبك وما تشائين. فقط أن نكون معاً». أُمازحه لأخفّف جرعة الجدّ: «لا أتخيّلُني أغسل جواربَك وملابسك الداخلية». فيقول: «أغسلها أنا، صدّقيني، أفعل أيّ شيء.. ضعي شروطك». أظلّ أتأمّله حتى أستشفّ داخله فأرى فوضى عالمه - التي لا تختلف حتماً عن فوضى عالمي - أقول: «دع فوضاك لك، واترك فوضاي لي، نحن صديقان». يقول: «حين تقول المرأة للرجل لنكن صديقين فهذا يعني أنها لا تحبّه». أوافقه، لكنّني لا أقولها له.

منذ وقت مبكر، ورغم الفوران الغريزي والعاطفي لمرحلة المراهقة الذي يدفع الفتيان والفتيات بعضهم إلى بعض، أدركتُ في نفسي انتقائيةً مرهفة تجاه الذكور، لكنّني لم أستطع - حتى الآن - إدراكَ قوانينها وإنْ تأكّدتُ مع الزمن من مفاتيحها: «لا صداقة بعد علاقة حبٍ فاشلة. هناك رجال لا أستطيع حتى في الخيال تصوُّرَ أيّ تماسٍّ جسدي معهم، حتى وإنْ كانوا - منطقيّاً - رائعين ولطيفين ومتّزنين.. إلخ.. وهؤلاء هم الأصدقاء. الجاذبية الجنسية مُبهمةُ الدوافع والقوانين، ومعظم العلاقات التي تبدأ بانجذاب جنسيّ صاعق تفشل لامحالة. لكلّ انجذابٍ حسّيّ فورةٌ، إذا مرّتْ دون أن تُنتج علاقةً عاد الرجل فيها شخصاً عادياً لا يتمتّع بأيّة جاذبية خاصة. الحبّ دَوْرٌ مرضيّ إذا أصاب شخصاً وقع بسهولة مع أوّل شريك مناسب لمزاجهِ - هذا بالنسبة للانتقائيين - ومع أيّ شريك راغب بالنسبة لغير الانتقائيين. وإذا مرّ دَوْرُ الحبّ دون وجود الشريك المناسب، أو إذا تعذّرتْ إقامةُ علاقة معه انحسرت الرغبةُ وتعافى صاحبها».

أقول إنّ ذلك يشبه تماماً ما يحدث في الطبيعة؛ فالحيوانات والنباتات تبحث عن الشُّركاء تحت ضغط تهيّؤ أجسادها للإخصاب: هرمونات، جاذبية مغناطيسية، كيمياء كهربائية. فتنتخب الشريك، وليس وجود الشريك هو الذي يهيّئها للحب أو للإخصاب.

يستنكر الكثيرون هذا المنطق: «نحن بشر لا حيوانات» يقولون.. وهذا صحيح؛ فالإنسان يمتلك اللّغة، واللّغة هي التي تُنشئ الأفكار وتعمّمها وتثبّتها. إنّ بيت شعرٍ في الحبّ يمكن أن يُرسي قاعدةً تظلّ أجيالٌ من البشر تتّخذها قانوناً، وإنّ مَثَلاً سائراً يمكن أن يُرسي قيمةً تظلّ الأجيال تعتقدها بعناد لمجرّد أنّ ترديدها يجعل مردِّدَها جزءاً من الجماعة المنتجة للفكر الجمعيّ.

●●● هل اصفرّت؟ العذوق، هل اصفرّت؟ نبدأ بالسؤال منذ حلول تموز، ونحن نرصد رؤوس النخل، وكلّما اجتاحتنا موجةٌ حرٌّ يقولون لنا: «هذا من أجل التمر» ثم يروحون يسردون علينا الأمثال الأزليّة عن مراحل الحرّ، أيّها للتين وأيّها للعنب وأيّها للتمر. ويحتجّ الصغار المنبطحون شبهَ العراة على البلاط الفاتر: «لا نريد تمراً!» فتضحك جدّتي وتحكي لنا حكايةَ الوالي العثماني الذي وُلّي على بغداد فجاءها في فصل التمر فطاش صوابُه والحرُّ يلسعه بسوط من نارٍ لزجة. وحين سأل عن سرّ هذا الجحيم قيل له إنّه من أجل التمر، فدُهش كيف أنّ أحداً في هذه البلاد لم يتوصّل إلى أبسط طريقة لإنهاء هذا الجحيم، فأمر بقصّ كلّ التمر في بغداد وضواحيها. وكالعادة، لم يعترض عليه أحد أو يفسّر له ما لا يمكن تفسيره لحاكم.. فقصّوا له كلّ تمر بغداد تلالاً من «الخِلال» الفجّ. وانتظر الوالي أن تهبّ نسائمُ إسطنبول لتهفهف له أعطافَه التي تسلّختْ وتسمّطت. لكنّه «فوجئ» بأنّ الجحيم بقي على ما هو عليه، فدُهش كيف أنّ أوامره لم تغيّر الفصول، وسأل غاضباً عَمَّنْ عصى أوامره، فاضطُرّ قصّاصو التمر إلى الاعتذار له بأن قصّ التمر لا يجلب الشتاء، ولا بدّ لفصل التمر أن يمرّ بتمامهِ غيرَ عابئٍ بالعذوق أكانت في قلب النخلة أمّ مكوّمةً على الأرض. فَواصَلَ الوالي دهشَتَه ولعن هذه البلادَ التي لا تمتثل فصولُها لأوامر الحاكمين... نغلق أفواهنا بعد انتهاء الحكاية وقد ألهتنا لدقائق، ثم نستأنف التقلُّبَ على البلاط تحت هبوب المروحة السقفية ونفخ «المُبرّدة» التي تشرب الماءَ وتبخّهُ على أبوابها المبطّنة بالحلفاء وتدفعه إلينا رَطْباً بارداً كما يفترض، ساخناً رطباً في الواقع.

●●● وأجلس تحت شجيرات النارنج في ظهيرات آب.. أتعرّق وأبترد بعرقي، فيهبّ عليّ «اللاهفُ» اللذيذ وأحسّ بمسامّي تتفتّح تحت ثيابي المنقوعة بالعرق المالح القارص. تهزّ جدّتي يدها بسخرية ويأس وهي تتطلع إليّ من خلف زجاج الشبّاك، وتروح تؤشّر باستنكار وتقول أشياء لا أسمعها، بل أخمّنها، عن جنون حفيدتها، التي من بين ملايين النّاس في هذا البلد الذي تسوطه سياطُ الجحيم، تترك هواء «المبرّدة» وتجلس في الحديقة تحت الأشجار لتعلن للنّاس أجمعين أنّها وريثة جنونٍ أكيد لا بدّ أنّه سرٌّ من أسرار الأسرة.

حين عدتُ بعد غيبة سنوات طويلة كتبتُ تحت وطأة الحنين عموداً في

الجريدة التي أعمل فيها، أتغزّل فيه بالحرّ، ووصفتُ «اللأهفَ» - وهو هواءُ الظهيرة الساخن الجاف - بأنّه «ذلك اللاهف الجميل». فصار أصدقائي وصديقاتي يعاركونني وهم ينفضون طيّات ملابسهم ويمسحون العرَقَ عن جباهِهِمْ ووجوههم، ويلتقطون السيولَ المنهمرة من شعورهم. وكتب لي قرّاء كثيرون عاتبين عليّ تغزّلي بالحرّ وتمنّى لي أحدُهم الذهابَ إلى الجحيم حيث سأجد هناك ما يكفيني من «اللاهف»، فوجدتني أشعر بالذنب الفادح كما لو كنت الوكيل الوحيد المُعتمد لاستيراد الحرّ وإطلاق جحيم رياح السموم. وظلّ أصدقائي لسنين يحمّلونني مسؤولية الحرّ كلّ صيف ويوبّخونني كلّما حطّتْ علينا موجةٌ قاسية منه: «أهذا هو لاهفك الجميل... تمتّعي به!».

وأنا أتمتّع بالحـرّ وأتلذّذ به. في بيروت كنت أنزل وقت الظهيرة في الشوارع، أسير وأنا أتشمّم الهواء وأبحث عن تلك النكهة التي لا يتميّز بها حرٌّ مثل حرّنا، فلا أجدها فأعود تبلّلني رطوبةٌ لزجة أمسحها عن جلدي بمنشفة مبلولة، وإذا حالفني الحظّ وجدت ماءً أزيل به حـرّاً ليس كـذلك الذي أتعشّقه(...).

●●● تأخذنا جدّتي إلى «حمّام السوق». جمهرة من النّساء المبرقعات بالعباءات السود، وشلّة من الأطفال، البنات والصبيان الصغار. ندخل الحمام فنفاجأ بالبرد ونحن نخلع ملابسنا ونكوّمها في زاوية خُصّصت لنا. تظلّ النّساء بملابسهن الداخلية: الصبايا بالشلحات، والأكبر قليلاً بالكيلوتات، والمُسنّات لا يأبهن: يضعن أكفهنّ على أسفل بطونهنّ ويحملن عدّة الحمّام في صندوق فضيّ على هيئة كرة محزّزة يسمّونها «رقيّة»، ونحن نسمّي البطيخ الأحمر رقيّاً. أمّا نحن فلا أحد يأبه بعرينا، فيجبرننا على التعرّي الكامل، فلا شيء لدينا يُخشى عليه من انكشافه.

ندخل دهليزاً طويلاً زلقاً فنبحث عن ملابس الكبار لنتشبّث بها فلا نجد.. ينحرف الركب قليلاً فندخل الحمام!... باحة واسعة تغرق في بخار كثيف، وأصوات الطاسات تضرب بالأحواض الحجرية. لا نرى شيئاً ونحن نسير ونحدّق في مواضع أقدامنا حتى نصل القوسَ المحجوز لنا؛ والحمّام مقسّم إلى أقواس عميقة تدور حول جدرانه، كل قوس يحتوي على حوض حجري وباحة يسمّونها «قمارة»، وهذه للذين يفضّلون خصوصية المكان، وإلاّ ففي الساحة التي يتوسّطها حوض دائريّ مليء بالماء الساخن المتجدّد.

نعتاد الرؤية، فأنبهر بلوحة العُري الكاسح: نساء من كل لون وعمر وحجم، عاريات مبلولات الشعر ملتمعات الجلود يتضاحكن وهنّ يفركن أجسادهنّ، أو يتمددنَ على الأرض الساخنة، أو يجلسن للتحدّث دون أن يشعرن بحرج العري.

تتفرّغ النسوة لمهماتهنّ: يعجنّ الحنّاءَ ويُذِبْنَ مزيلَ الشعر، ينقعن الطينَ الخاصَّ بتنعيم شعر الرأس - ويواصلن سَكْبَ الماء الساخن على أجسادهن لكي «ينقع» الوسخُ فتسهل إزالتُهُ بالكيس الأسود المحزّز بِقُطَبٍ من خيوط القطن الثخينة. وتبدأ عمليةُ الكَشْطِ والتنعيم: الحجارة السوداء لكعوب القدمين، قطع الطوب الأصفر الناعمة للسيقان، الكيس الأسود للجسم، أقراص السبيداج للوجه. وتصيح واحدة متذمّرة: «أكلُّ هذا من أجل أن....» ثم تخفض صوتها بعد أن تحشر رأسَها بين رؤوس صاحباتها وتهمس بشيء تضجّ له المجموعةُ بالضحك الممتزج بقرقرة المياه ورنين فراغات البناء. ونروح نحن نستكشف المكانَ واللحومَ المباحة. ننبهر بالنهود التي ليس لدينا مثلها: صغيرة، كبيرة، نافرة، متهدلة، قاعدة، بطون وخصور، أفخاذ ومؤخّرات تتغافز عند المشي صاعدةً نازلة، شعورُ آباطٍ تُنْتَفُ بالخيط وسط صرخاتِ الألم والغنج. غير أنّ

أكثر ما كان يرعبني في عُرْيِ الحمّامات، هو المثلّثاتُ المُشعرة. أهبط بنظري إلى ما لديّ وأرتعب من أنّني سيكون لي يوماً مثل ما لديهنّ. تصرخ امرأة بأخرى: «لا تحلقيه بالموسى، هل جننتِ، سوف يصبح كلحية الرجل!». فتردّ عليها المرأة «يعني مثل لحية الـ......» فيضحكن وتقول إحداهنّ: «يلعن شيطانك، لن أستطيع التطلّعَ إلى لحيته دون أن أتخيّل أنّها قد انتقلت له من الأسفل إلى الأعلى!».

●●● نتجمّع حول ولدٍ صغير نتفحّص بروزَهُ الغريب، نقلّبه ونقرّر أنّه «غير مطهّر». والولد يتطلّع إلينا بفزع ممّا يمكن أن نفعله بشيئه الذي يُشبه نواةَ التمر، لا يلبث أن يتضخّم قليلاً بين أصابعنا فيصبح مثلَ مُصْرانٍ سيّئ الحَشْو... تقول لي: «اسحبيه.. اسحبيه» فأسحبه قليلاً وأدهش: «إنّه لاستيك!» تقول أخرى: «كلا، إنه للبول».. «وما هذه»؟ نقلّب بيضتيْه المائعتيْن مثل حبّتَيْ مشمش ناضجتين.. أقول: «ليس بهما ثقب، ليستا للبول». تجرّهما إحدانا فيتمدّد الجلد.. تقول: «بلى، فيهما بول» وتجعل تعتصرهما وتطلب منّي أن أساعدها: «اعصري.. اعصري». يصرخ الولد فتلتفت أمُّهُ وتصرخ بنا: «اللّه يلعنكم.. خربتوا الولد!» فنفرّ هارباتٍ من حوله ونحن نتأمّل أجسادنا الممسوحة، كما لو أنّ الشيء الذي لديه قد خُبِّئَ لدينا بمهارة.

بعد أن تكون النسوةُ قد جلفن أنفسهنّ، تبدأ حفلةُ الغداء.. تأتي صينيةُ الكباب الضخمة، فيقعدن حولها يتناولن الكباب والمخلّلات والسلطات بشهية، دون أن تقلقهنّ نهودُهُن المترجرجة أو أفخاذُهُنّ المتربّعة، وقد وضعن بينها ليفةً، أو كيسَ حمام، أو سروالاً مبلولاً. ثم يتناولن الفاكهة، وبعدَها الشاي، فيكون طقسُ الحمام قد ذوى فيتعجّلْن غسلَ رؤوسهنّ ثم «يسبحْنَ» أي يسكبْنَ الماءَ بكثافة على أجسادهن وهنّ واقفات،

يُبسملن مع كل طاسة ماء.. ثلاثَ مرّات على كلّ كتف وثلاث مرّات على الرأس. نحن لا نسبح لأنّنا لا نصلّي أوّلاً، ولأنّنا «طاهرات» ثانياً: لا دورة شهرية ولا مضاجعة.

يتوجّه الركب عبر الدهليز الزلق، هذه المرّة لكي نلبس ملابسنا النظيفة، وهناك تشرب النساء الشاي «الدارسين» أي القرفة قبل مغادرة الحمام.

أقول اليوم لصديقتي: «تعالي نذهب إلى حمّام السوق» تقول: «لا تُفسدي ذكريات الطفولة، الحمامات الآن وسخة وسخيفة»، فأوافقها.

●●● نقف خلف الشبّاك نتفرّج على أحد طقوس ليلة الحنّاء لإحدى صديقات أمّي. جاءت «الحفّافة» منذ الصباح لتنتف العروس، نتفت بالخيط ساقيْها وذراعيْها. فتّشتْ في فخذيها فلم تجد شعراً. نتفت وجهها الذي أخذ يصبح مع كل حركةٍ خيطٍ أشدّ احمراراً، فتمسحه المرأة بقرص «السبيداج» لكي لا «يُحبَّبَ»، قوّستْ لها حاجبيها ثم بدأتْ بنتف إبطيها.. نفزع ونحن نرى مساحةَ الشعر، نتلمّس أباطنا فنجدها ناعمةً قليلة الشعر. تقول صديقتي: «لن أدع أحداً ينتفني، يا للفظاعة!» أقول: «هذا شيء يشبه جزَّ صوف الأغنام». تقول: «سوف أتزوّج بشعر إبطيٍّ». أقول: «فقط؟!» نحمرُّ ونضحك متجنّبَتَيْن تخيُّلَ منظرنا في مثل تلك اللحظات. تصرخ العروس في الداخل، فتصيح بها أمّي: «ألم أقل لك لا تحلقيه، أنظري إنه مثل لحية الرجل» فتنصحها الحفّافة بأن لا تحلقه منذ الآن، وسوف ينعم ويتضاءل. ولكنّ العروس تواصل الصراخ، فتهمس إحداهنّ في أذنها، فنخمّن أنها تقول لها «وماذا ستفعلين إذن حين...» يضحكن ونضحك نحن مِنْ خلف الشبّاك الذي تُسدل ستائره دوننا. تقول صديقتي: «جاء دور مثلّث بيرمودا!».

حكت لنا إحدى الصديقات أنها حين هَيَّأْنَهَا للعرس أصْرَرْنَ عليها أن تنتف بالخيط ذلك الشعر، فاضطرّتْ إلى القبول وهي تتخيّل أنها لن تُصبح عروساً مثالية دون ذلك، وتتحسر، وقد كانت وقحة سليطة اللسان: «يا حسرتي.. لقد «حبّبَ» على الفور ولم تُشْفَ الحبوب إلاّ وكان الشعر قد عاود الظهور مثلَ رؤوس الدبابيس، فماذا فعلنا؟!.. الله يلعن المرأة ورحلة الامها التي لا تنتهي». فتنصحها صديقتُها التي تضاهيها في الوقاحة وسلاطة اللسان: «يا غبيّة.. احذري أن تفعلي ذلك مرّةً أخرى - إنّه - أي الشعر - مهمّ جداً من أجل....» فنوبّخها على وقاحتها ولا ننسَ أن نسألها ونحن ما نزال ندّعي الانزعاج عن مصدر معلوماتها، فتقول إنها قرأتها في كتاب متخصّص، «هل تريدونه؟» تسألنا، فنرفض. إذْ أين سنخبّئ مثلَ هذا الكتاب من أيدي أمهاتنا اللاتي ينبشن دون هوادة في مخابئ أسرارنا؟

●●● تؤجّل مواعيدُ الزواج دائماً في انتظار الصيف، وبالتحديد ذروة الحرّ، وليس أغرب من ذلك.. فقد تخيّلتُ دائماً أنّ الشتاء هو الفصل الأنسب للزواج. تقول صديقتي: «الهيجان يبلغ أشدّه في الصيف» فأتعجّب كيف يمكن تخيُّلُ اقتراب جسديْن غريبين وسط سموم الحرّ والرطوبة والاختناق؟

يقولون لنا: «باللّه عليكم، كيف تتحمّلون هذا الصيفَ الرهيب، وبالأحرى كيف حصل عبر التاريخ أنكم فكّرتكم وابتكرتم وأبدعتم وقلتم شعراً ورسمتم واخترعتم الأديان والقوانين وأدركتم الجمالَ والحقَّ والعدالة»؟ فنقول: «ربّما كان الحرّ وقود الآتنا، من يدري؟».. ويقولون: «الآن عرفنا لماذا لا تخشون «العاقبة» فأنتم تتدرّبون طيلة عمركم على نار جهنم، فأي شيء يمكن أن يرعبكم؟».

في لندن، وأنا أصارع مرضَ الموت اختفى صوتي فاحتار الأطباءُ وهم ينبشون في حنجرتي وصدري عن سبب لذلك. ابتلعتُ مئات الكبسولات وعشرات الزجاجات، وتحوّلتْ مؤخّرتي إلى مصفاة من كثرة ما اخترقتها الإبر، ولم يكتشف السرَّ غيرُ واحدٍ من الأطباء، قال لي: «أنتِ تفتقدين الشمس. ما إن تعودي إلى بلدك حتى تشفَي». فعدت بلا صوت، كنت أصفّر الأغنيات لأنّني لا أستطيع أن أغنّيها وأنا مولعة بالغناء بصوتٍ عالٍ. كنت دائماً أقول لو أنّ اللّه يحبّني لوهبني صوتاً غنائيّاً، وما كنت عندها سأكفّ عن الغناء... وجعلت أشربُ الشمس وأتحمّم بها، وأعبّئها في فراشي وأغطيتي وملابسي، فعاد صوتي، فكتبت للطبيب أشكره وأقول له إنّه لا بدّ أن يكون شاعراً حتى استطاع تشخيص مرضي.

في الصيف يدوخ النّاس ويضطربون، يقولون «لا بدّ أنّ الحرارة اليوم فوق الخمسين». وحين يسمعون في الإذاعة والتلفزيون أنّها خمسٌ وأربعون يغضبون ويتّهمون الأنواءَ الجويّة بالكذب، ويصدّقون أنواءهم الذائبة تحت وهج الشمس المتسلّطة وجفاف «اللاّهف»، ويتطلّعون إلى الورد الجوريّ الذي يواصل انكماشه وتقلّصه دفاعاً عن نفسه ضدّ الجفاف، وإلى النارنج وهو يتدوّر ويصفرّ، وإلى النجيل وهو يتفحّم، وإلى عرائش العنب وهي تضخّ الحلاة في العناقيد (التي ما إن تبدأ العصافيرُ بنقرها حتى ندرك أن أوان قطافها قد حان)، وإلى النخيل المترفّع عن آلام النّاس يصنع العسل في الثمار متأنّياً، لكلّ ثمرة أوانها حين ترصدها أعين الصبيان فتنقفها بحصاة وتسقطها وقد انقسمت إلى قسمين: أحدهما ناضج طريّ ذائب، والآخر ذهبي يقرش تحت الأسنان: «نص ونص»؛ هكذا يسمّون التمر في عزّ نضجه حين يبدأ الصيف بالخمود ببطء تاركاً النخيل فارغاً من العذوق الثقيلة، والأجساد تنثف حرارة شهور الجحيم تحت سماء الأمسيات الخريفية الناعسة.

بغداد - عمّان